الفداء » تصور جانبا آخر من جوانب النضال الفلسطيني . وقد بدت فيها الكاتبة أكثر حنكة ، ودراية بالفن القصصي ، واعتمدت في تسلسل الحوادث على الواقع الذي عاشته ورفيقاتها في آخر ايام النضال قبل سقوط عكا وحيفا في أيدي الاعداء . كانت سميرة نفسها قد ساهمت مع سيدات عكا في حياكة القمصان الصوفية لاهدائها إلى افراد الحرس القومي وكتابة عبارات مشجعة على بطاقات يضعنها في جيوب القمصان ، وهكذا كانت بطلة القصة الممرضة « سعاد » التي التقت صدفة بحارس المستشفى الليلي الذي كان قميصها من نصيبه وفي جيبه عبارتها التي تقول : « أرجو ان تكون من نصيب بطل » . (وسميرة معروفة بخلق الصدف الحلوة وتدبير المناسبات الموحية في قصصها بصورة عامة) . ويتكرر لقاؤهما ، في طابور التدريب والتأهب وفي اوقات الراحة القليلة ، ونما الحب بينهما . وهنا تعاود الكاتبة ذكرياتها عن طبيعة بلادها الجميلة فتكتب : « كان الوقت ربيعا ، وربيع فلسطين بحر أزرق تتهادى عليه أشرعة المراكب البيضاء نهارا ، وترصعه فوانيس قوارب الصيد ليلا ، وبساتين برتقال يكثف عبقها الهواء . . وفي ربيعه ذاك عرف شيئين . . الحب والحرب » . الحب هو الذي يعطي المعنى للحرب ، وما الحرب في نظره الا حق حياة للارض التي يحب ، والفتاة التي يحب : « ومع كل اطلالة صباح . . كان يستقبل خيالها . . جنبا الى جنب مع انباء المعارك في صحف الصباح . . معركة القسطل ، هجوم قومه من مثلث الرعب على قرى الاعداء . . غاراته وأخواته على المصفحات اليهودية المتسللة على طريق حيفا — عكا نهاريا ، بطولة قومه في سلمة وفي كل مكان » . وكانت الحرب اقوى من الحب ! فوقعت كارثة حيفا وخرج النازحون يتلمسون طريقهم الى الميناء وأخذ الاعداء يمطرون الطرقات والشعاب بالرصاص . أما هي فقد رفضت النزوح مع اهلها ، وأما هو فقد بقي ليؤدي ما وكل اليه من جمع الذخيرة من القرى نهارا والقيام بالحراسة مع رفاقه ليلا . وعرفت « سعاد » طريقهم وأخذت تحضر لهم كل يوم صرة ملأى بالخبز والسجائر والحلوى . وتبلغ المأساة ذروتها على يدي الكاتبة عندما تلاقي « سعاد » البطلة مصيرها المحتوم وتصيبها رصاصة وهي تمرق من باب الحديقة الى حيث قبع ورفاقه وراء المتاريس . وبشيء كثير من رقة الشعور ورهافة الحس تصف الصراع العنيف في نفسه ونفس رفاقه بين أن يطووا ضلوعهم على الجوع او يمدوا أيديهم الى الصرة الممزقة والارغفة الملوثة بدمها الزكي ، ومرة اخرى تنتصر ارادة الحياة ، فما زال امامهم شوط طويل ، وعيونهم لن تنام عن الثأر ، فليكن الخبز هو « خبز الفداء » .

في مجموعة « الظل الكبير » صورتان فلسطينيتان غاية في الروعة والانسانية ، اوحت بأولاهما اليها عبارة وردت على لسان مذيع اذاعة الشرق الادنى ، ضمن « رسائل اللاجئين الى ذويهم » تقول كلمات الرسالة: « من جميل عبدالله في بيروت الى والده كريم عبدالله ووالدته سلمى واخته وداد في يافا : انا بخير كذلك خطيبتي ناديا . سنتزوج في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثامن من ايار في كنيسة « السيدة » ، ثم نسافر لاعمل في الكويت . مشتاقون ، طمئنونا بواسطة الاذاعة » . ولكن ، ماذا بيد « سلمى الصواف » وزوجها أن يفعلا في يوم فرحة ولدهما «جميل» سوى ان يذيع المذيع ردهما على الرسالة فيقول : « من كريم عبدالله وزوجته سلمى وابنته وداد وزوجها . . نبارك زواجك وندعو لك بالخير » . تصور سميرة قمة الفاجعة حين تقول : « وبيروت ليست في السند او الهند . بيروت لا تحتمل اكثر من ساعات ست في مشوار سيارة . . ولا تحتمل اكثر من نصف ساعة في طائرة . . ومع ذلك فمستحيل المستحيلات لديها (سلمى) ان تذوق فرحة العمر وتكحل عينيها بمرأى جميل عريسا . . » وتتساءل سميرة : « أية قسوة في الحياة تشتط فلا تشفق على قلب أم ولا تفرح قلب أب . . » وتتحدث عن مشاعر الأم حين بلغت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وتستعرض الشريط الجميل الذي مر بخيالها لولدها الصغير